التشكيك في لغة القرآن وفصاحته

بعد أن أسرف المستشرقون في التشكيك في مصدر القرآن،... وكأن الأمر قد استقام لهم، راحوا يشككون في سلامته اللغوية والأسلوبية، ويحاولون النيل من بيانه وفصاحته وبلاغته ونظمه وترتيبه ومعطياته، وكل ما يتعلق بعظمته وسموه وإعجازه... يقول توماس كارلايل - مؤلف كتاب الأبطال- بعد أن اطلع على ترجمة جورج سيل- المشوهة الناقصة- عن القرآن الكريم:

«إنني يجب أن أقول إني لم أعان قراءة متعبة كقراءته أبدًا... إنه مجموعة مشوشة مضطربة... فج... تكرار بلا نهاية... التواء طويل... تشابك، فج جدًّا، مشوش، غباوة لا تحتمل»[1].

وقال مثل ذلك، أو قريبًا منه المستشرق (دوزي ت 1883م)، فقد أطلق عبارات مريضة عن القرآن فحواها: أنه كتاب ذو ذوق رديء للغاية، ولا جديد فيه إلا القليل، وفيه إطناب بالغ وممل إلى حد بعيد[2].

وعلى هذه الوتيرة من مجافاة مقتضيات الحيدة العلمية، سار معظم المستشرقين في بحوثهم عن القرآن الكريم، واقرأ إن شئت لـ (جولدزيهر) أو (بلاشير) أو (كازانوفا) أو (دوزي) أو حتى (نيكلسون) [3] أو غيرهم...، فقد لاك هؤلاء وقبيلهم شبهات ومزاعم عن حفظ القرآن، وجمعه، والنسخ المحفوظة له، وعن اختلاف القراء والقراءات، وكونهم قد تدخلوا في النص المقدس الكريم

(1) Carlyle T. On Heroes, Hero - worship and the heroic in History, London, 1935, P.83.

(2) الإسلام في الفكر الغربي ص118، الاستشراق ص64 للدكتور زقزوق.

(3) Nichilson,The Idea of Personallty in Sufism,. Lahore, P.9.

بالزيادة والنقصان،... وإنك لتجد أن أول ما افتتح به (جولدزيهر) كتابه: (مذاهب التفسير الإسلامي) قوله: «.. فلا يوجد كتاب تشريعي اعترفت به طائفة دينية اعترافًا عقديًّا على أنه نص منزل، أو موحى به، يقدم نصه في أقدم عصور تداوله، مثل هذه الصورة من الاضطراب، وعدم الثبات، كما نجده في النص القرآني[1].

أما (بلاشير) فإنه لم يتوانَ في بذر الشكوك وإثارة الشبهات، ولي الحقائق، وتزييف الوقائع، لينال من القرآن الكريم..، فقد شكك في حرص الرسول على كتابة الآيات حال نزولها، وأن خوفه كان شديدًا لما نزل عليه الوحي لأول مرة، فلا يمكن له أن يكتب ما نزل عليه، ولأن المسلمين كانوا في صراع مع يهود المدينة الذين كانوا يسيطرون على وسائل الكتابة. واستخلص من ذلك أن النص القرآني لم يكتب بأكمله في عهد الرسول.. والحفظ ليس مثل الكتابة، ومن ثم فإنه ينبغي احتمال اختلاط النص الأصلي ببعض الزيادات الطفيفة التي أدخلت عليه في العهود المتأخرة...، وافترض بلاشير بعض الأسباب التي جعلت الرسول – في زعمه – لا يحرص على كتابة القرآن في عهده، وذكر عدة احتمالات غير صحيحة؛ لأنها أسست على مقدمات باطلة، إذ من المعروف المقطوع به – من خلال الوثائق الثابتة والتواتر الملزم – أن عناية النبي ﷺ وأصحابه بكتابة القرآن لا تقل عن عنايته بحفظه لزيادة التحري والضبط، برغم أن أدوات القيد والكتابة لم تكن آنئذ ميسورة.

وهل اتخذ رسول الله ﷺ كُتابًا للوحي من أبرز الصحابة كالخلفاء الراشدين وغيرهم إلا لهذا الغرض؟ وهل كان نهيه عن كتابة الحديث – أول مرة – إلا لتوجيه العناية إلى القرآن وحده فلا يختلط بالسنة؟.. هذه مسألة مفروغ منها عند كافة المسلمين، عامتهم وخاصتهم، في جميع أزمانهم وأمصارهم.

وانظر إلى غرابة افتراض بلاشير، لتعليل عدم كتابة القرآن في عهد الرسول – كما يزعم –، فيقول «إن ميل الرسول وأصحابه إلى ترك الأمور على ما هي

(1) مذاهب التفسير الإسلامي ص4.

عليه، يؤيد ما اشتهر به العرب من أنهم لا يفكرون إلا في الحاضر، ولا يهمهم أمر المستقبل، وهذا الميل يقف وراء عزوف المسلمين عن جمع القرآن في عهده، إذ لم تكن الحاجة ماسة إليه، كما يؤيد ذلك عدم تعيين خليفة له»[1].

أما المستشرق (كازانوفا) فإنه يشك في نسبة بعض الآيات إلى الوحي، ويرجح – دون اعتماد على منطق أو وثائق أو وقائع ثابتة – أن أبا بكر الصديق هو الذي أضاف بعض الآيات للقرآن الكريم[2].

ويتحدث أونولد نيكلسون.. «.. والقارئون للقرآن من الأوروبيين لا تعوزهم الدهشة من اضطراب مؤلفه وهو محمد، وعدم تماسكه في معالجة كبار المعضلات... وهو نفسه لم يكن على علم بهذه المتعارضات... كما لم تكن حجر عثرة في سبيل صحابته الذين نقل إيمانهم الساذج القرآنَ على أنه كلام الله... لكن الصدع من هنا وجد، وسرعان ما أظهر نتائج بعيدة الآثار[3].

ويزعم (بلاشير) أنه ليس هناك نص موحد للقرآن الكريم مؤسسًا زعمه هذا على فهم مغرض للقراءات القرآنية..، ومن ثم فإنه يجوز قراءة القرآن بالمعنى.. كما ذهب جولزيهر... [4] والعجيب أن هؤلاء في – بحوثهم لا يفرقون بين القراءة المتواترة والأخرى الشاذة.

---

(1) Blachere. Introduction to Coran. P. 16 - 26 Paris

(2) انظر بحث التهامي النقرة في مناهج المستشرقين.

(3) الصوفية في الإسلام، ترجمة نور الدين شريبه ص7 – 8، نشرة القاهرة.

(4) مذاهب التفسير الإسلامي ص6، 11، 12، 29، 3، 11، 31، 51 كما أن Blachere قد ترجم القرآن الكريم في مجلدين، وقدم لترجمة كل سورة بمقدمة، ورتبه حسب نزوله مؤسسا هذا العمل على دراسات T. Noldeke النقدية للقرآن الكريم، كما اقتبس كثيرًا من عبارات وطريقة R. Bell المعروفة حسبما يذكر رودنسون ص40.

ويروج (بلاشير) لفكرة باطلة أخرى، هي أن أمر النبي ﷺ بتدوين الوحي لم ينشأ إلا بعد أن هاجر إلى المدينة، وأقام بها، وأن التدوين كان جزئيًّا وناتجًا عن جهود فردية، ومثارًا للاختلاف[1].

وقد ذهب المستشرق (لوت) إلى أن النبي ﷺ مدين بفكرة فواتح السور مثل: حم، وطسم، وكهيعص إلخ لتأثير أجنبي، ويرجح أنه تأثير يهودي، ظنًّا منه أن السور التي بدأت بهذه الفواتح مدنية، خضع فيها النبي ﷺ لتأثير اليهود، ولو دقق هذا الأفاك لعلم أن سبعًا وعشرين سورة من تلك السور التسع والعشرين مكية، وأن اثنتين فقط من هذه السور مدنية، هما: البقرة وآل عمران[2].

وبالنسبة لموقف المستشرقين من القرآن فقد كانوا في غاية الانسجام والتوافق مع مزاعمهم السابقة واللاحقة، ويكفي للتدليل على ذلك كتاب (الحداد) بعنوان (دراسات قرآنية) وهو كتاب لأحد غلاة المستشرقين بث فيه ناقع سمه ولاهب حقده[3].

وفي الواقع إنه كان للرسول الكريم، وللحق، خصوم وأعداء ألداء مثل كازانوفا، ولوت وبلاشير، ودوزي، وجولدزيهر، ودي ساس، ونيكلسون، وسيل، وبطرس المحترم، ولل، وغيرهم... وكان أعداؤه من مشركي العرب أكثر من هؤلاء ذكاءً وحماسة، ولم يكونوا أقل منهم دهاءً، ومع ذلك لم يوجهوا هذه المزاعم له، لوهائها وتناقضها وسقوطها.

(1) بلاشير: مدخل للقرآن ص28 – 29.

(2) د. محمد غلاب: نظرات استشراقية في الإسلام ص41 – 42.

(3) مقال التهامي النقرة.